المعارف الحكمية
معهد الدراسات الدينية والفلسفية

التوحيد ومعرفة الإنسان

مقاربة معيارية للفكر الغربي المادي

هادي قبيسي

الكلمات المفتاحية: هادي قبيسي، التوحيد ومعرفة الإنسان، العلمانية، الدين، الثقافة.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاء مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ

{سورة الممتحنة / الآية 1}

"يجب العثور على أصل وركيزة وأساس العلوم الإنسانية في القرآن الكريم. هذا أحد الأقسام المهمة من البحوث القرآنية. يجب أن يعتنى بالنكات والدقائق القرآنية في مختلف المجالات، ويجب التفتيش عن مباني العلوم الإنسانية في القرآن الكريم والعثور عليها. هذا عمل أساسي ومهم جدًا. إذا حصل هذا الأمر، سيتمكن المفكرون والباحثون وأصحاب الرأي في العلوم الإنسانية المختلفة، من تشييد الأبنية الرفيعة على هذا الأساس وهذه الركيزة. طبعًا في تلك الحالة يمكنهم أن يستفيدوا من إنجازات الآخرين من الغربيين وأصحاب السبق في العلوم الإنسانية، ولكن المبنى يجب أن يكون مبنىً قرآنيًا".

ولي أمر المسلمين، الإمام الخامنئي دام ظله[1]

[1] من كلمة له في لقاء مع جمع من طالبات علوم القرآن / 20-10-2009

نظرت المعارف الإنسانية المرتكزة إلى الفكر العلماني والمادي إلى واقع موضوعها، أي الإنسان، بشكل مجتزأ، فوقعت في الإختزال والتناقض الناشئ من التنوع الفوضوي، وانحرفت عن جادة الصواب باستنادها إلى معرفة ضئيلة وضبابية بأصل وحقيقة الموجود الإنساني. نجد هذا الإنحراف في الكثير من النظريات المادية، مطويًا عميقًا في الخلفية الفلسفية، الواعية أو اللاواعية، للكاتب بحيث يتعذر لعين الملاحظة السطحية أن تعثر على هذه الانحرافات. ثمة مشكلة في الجذر وسياق التفكير والمنظور العام التي تشكل أرضية هذه المعارف، ولا تقتصر المشكلة على الجزئيات. لدى النص العلماني مشكلة حادة مع الروحانية التي هي مشروع الدين، فعندما كان الدين هو المدخل الوحيد للمعرفة قبل التنوير، كانت المعرفة ذات بعد ومرتبة واحدة، وعندما جاء العلم ليفرض نفسه في أوروبا مصدرًا للمعرفة، حاول أن يظهر كمدخل وحيد للمعرفة، بديلًا عن الدين، لم يكن ممكنًا أن يكون هناك معركة هادئة، كانت معركة جذرية، لا بد فيها من غالب ومغلوب. بالإضافة إلى ذلك تم إخراج الدين من الحياة ككل، فلم تعد القضايا التي يعالجها الدين محل اهتمام. المقاربة العلمانية انقطعت عن الروحانية من أربع جوانب، فثمة قطع ثقافي حيث تشتغل في عالم لا يستخدم المقولات الثقافية الروحانية، وآخر فلسفي إذ تستند إلى رؤية كونية مادية مجتزأة، وكذلك هناك قطع روحي حيث تؤثر في الروح وتقطعها عن روحانيتها وذاتيتها، وأخيرًا نصل للقطع التطبيقي عندما تفرز برامج عمل تبعد الإنسان فردًا ومجتمعًا عن الروحانية.

بعد إنهاء بحث جدلية المعرفة الزمنية والحضورية عند الإمام الخميني التفت إلى مدى تطرف الفكر المادي في مجال العلوم والقضايا الإنسانية، وانحيازه لطرف واحد من الثنائيات الكلية الكونية، فهو أخذ الطرف المادي من كل ثنائية، وأهمل الطرف التجاوزي والمتعالي. فالنص العلماني وقف على أرض صلصالية رائبة في مقاربته للقضية الإنسانية، والذي رضي بأن يتناول جزئية في هذه القضية ويطلق على معالجته لها عنوان الكل، ويعطيها مشروعية حقل معرفي : "العلوم الإنسانية"، أو "الإنسانيات" بشكل يجافي الواقع الموضوعي. النص هذا مارس سلطة معرفية وثقافية واسعة جدًا وذلك إما لتوفره على مواصفات تخوله فرض وجوده، وإما من خلال دالة التفوق الاستعماري الغربي الذي أعطاه نسبة التفوق. المواصفات الذاتية تبدأ من التنظيم الجيد لمنهج البحث والاستدلال، وكذلك في تنظيم الأفكار وتجزئتها، وتوفر الإحاطة المعرفية والمعلوماتية لدى الباحث ومؤسسات البحث، وتكوين المدرسة العلمانية الغربية منظومة فكرية منسجمة، وفق منطقها، إلى حد ما ومبنية على متتاليات إقناعية بحيث تسيطر على خط سير الفكر، ومن ناحية أخرى تتقدم تلك المدرسة في طرح القضايا محل الإهتمام اليومي والمباشر ومحاولة إيجاد الحلول ما يجعلها محل حاجة، كما تعكس النصوص مدى الجهد الفكري المبذول فيها ما يجعلها محل تقدير معرفي وعلمي من قبل القارئ، كما تظهر القدرات الذهنية المتطورة لدى شريحة من الكتاب

والباحثين، مضافًا إلى أنها تطرح مصطلحات وسياقات لغوية جديدة بشكل دائم بحيث يصبح القارئ منصاعًا كتلميذ حديث العهد أمامها، على أن تلك النصوص المبتسرة من حيث الرؤية تقدم في قالب من شعارات حرية الفكر، وتتطلع إلى الجوانب غير المادية في الكائن الإنساني بما يعطيها مشروعية النظرة الشمولية والواقعية، دون أن تلامس حياته الروحانية مطلقًا.

تأثير المعارف العلمانية يتخطى الجانب العلمي الموضوعي ليصيب الجانب الذاتي والمعنوي كونها تحاول تشخيص حقيقة الإنسان والتخطيط لحياته في أبعاد مختلفة، كما أن استفادتنا من منهجيات العلوم الإنسانية تنحصر في النظر إلى الأمور الحياتية المباشرة والعملية، وبما أن القضايا الحياتية تشغل العقل الإنساني في مساحة كبيرة من الوقت، فإن ذلك أدعى لتحول هذه المنهجيات إلى المنظور الذي يشكل رؤيتنا للحياة ويترتب على ذلك الاعتقاد ومن ثم السلوك. قد نمتلك ثقافة إسلامية واسعة أو إيمانًا حقيقيًا، وهذه تشكل نقيضًا للعلمانية، ولكننا نجهل موقع النظرة المادية من هذه الثقافة وذلك الإيمان، وبذلك نفقد البصيرة في تحديد الخطأ والصواب. بالتأكيد يتفاوت التأثر زمنيًا ومن حيث الموضوع وكذلك من فرد إلى آخر، وقد نحمل فكرة ونقيضها في آن دون أن نلتفت، فنكتب أو نعبر أو نقرر أو نضع منهجًا متناقضًا في حقيقته دون أن ندرك ذلك، وهذا نحو من أنحاء التأثير.

رغم المشكلة البنيوية الشاملة في هذا الفكر، فقد اقتصر الإسلاميون عادة في مقاربتهم للعلوم الإنسانية (عدا الفلسفة) المادية على المقاربة القيمية الأخلاقية والفقهية أي من الناحية السلوكية وأغفلوا الناحية الفلسفية والمعرفية ذات التأثير في بنية الذات العارفة، والغائية التي تتحكم بالأولويات وتنظم مسار الحياة. وحتى في المقاربة القيمية والفقهية اقتصر الإسلاميون على نقاط التعارض المباشرة وأغفلوا في الأعم الأغلب التعارض غير المباشر، ولم يقدموا معايير كلية لأصل ومناشئ التعارض القيمي والفقهي. فالنصوص الفلسفية المادية تتناقض بشكل مباشر مع الفكر الإسلامي والنص القرآني أما العلوم الإنسانية التي ترتكز إلى تلك الفلسفة فهي تتناقض بشكل غير مباشر في كثير من الأحيان، وبذلك تترك أثرًا دون تحفيز الدفاع الفلسفي الإسلامي.

المشكلة أعمق من ذلك، وهي تتخطى الظاهر لتعود إلى المنشأ والمنظور والسياق، فهذا النص العلماني يعبر عن شخصية علمانية منحازة ومختزلة، وهو بالتالي وليد الرؤية الكونية التي يحملها عقل الباحث وعقل واضع المنهج والنظريات، وهو لا يمكن أن يخرج عن دائرة نشاط هذا العقل ومدى إدراكه الكوني.

إن مشكلة عدم توفرنا على مشروع نقدي شامل لا تنبع من المعضلة الفكرية والمنهجية بقدر ما تسبب بها التخلف الروحي الذي وقعنا فيه نتيجة التعرض للمنهج التعليمي المادي بحيث خمدت الإرادة والثقة في مواجهة الطرح المادي، وسكنت اللاوعي قناعة بسلامة هذا الطرح وصوابيته، فغدونا [مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إِلَى هَؤُلاء وَلاَ إِلَى هَؤُلاء] {النساء/143}. جملة من الأهداف تحملها هذه المحاولة المتواضعة، تحددت بناءً على دائرة المشكلات التي وقعت فيها المقاربة الإسلامية للعلوم الإنسانية المادية، وتتعدد هذه الأهداف بدءًا من إثبات الإنحراف في تلك العلوم من وجهة نظر الإسلام وتقترح النص القرآني كمدخل مركزي، إلى تبيين مجال الإنحراف، وبذلك ترنو إلى استعادة موقع القرآن في تقييم النتاج الفكري البشري، ومنهجيًا نهدف إلى تنظيم الموضوع النقدي الواسع جدًا والغارق في الفوضى، وبالتالي بناء قدرة على استمرارية الدفاع أمام النظريات الجديدة على النقد وميسرة.

في المنهج

النظرة العلمانية المبتسرة والمنقطعة عن مصدر المعرفة الوحيانية نقابلها بمقاربة ثنائية تجمع بين المعرفة الظاهرية ومندرجاتها ونتائجها وبين المعرفة الوحيانية ومتعلقاتها. الثنائية هي استعادة للرؤية الكونية الشاملة التي تنطوي على موجود خالق وموجود مخلوق، وبكلمة أخرى، على موجود بذاته، وموجود بغيره. النظرة العلمانية تختزل الوجود إلى موجود بغيره حصرًا دون أن تلتفت إلى الموجد ودوره وتأثيره في الحياة الإنسانية الفردية والاجتماعية.

الثنائية الكلية القائمة بين الموجود بذاته، أي واجب الوجود من جهة، والموجود بغيره، ممكن الوجود من جهة أخرى، تتولد منها مجموعة من الثنائيات الفرعية التي تتوزع إلى أربعة أبعاد، فلسفي وجودي، وآخر معرفي، والثالث قيمي تربوي، وأخيرًا بعد غائي. تشكل هذه الثنائيات الفرعية نقاطًا يتولد منها خط التماس الفكري بين الجبهة الفكرية الأحادية الاختزالية العلمانية، والجبهة الموضوعية الواقعية الإسلامية. ثلاثة وثلاثون ثنائية فرعية، تتشكل من جزء ملكوتي وآخر ملكي، فالإسلام يحدد العلاقة بين الجزء الملكوتي والملكي من الثنائية، أما في المادية فيحصل الإنفصال والاختلال والاختزال والتشوش.

نعتمد في مقاربتنا، إذن، منهجية الثنائيات في تنظيم النقاش والبحث، التي نقترحها معايير لسبر أغوار النص العلماني والإحاطة الشمولية بإشكاليته ونواحي اختزاليته واجتزائه للواقع الإنساني، فيتم فرز المجالات المعرفية المادية بناءً على موقعها من الثنائيات بحيث يتمكن القارئ من تشكيل خلفية نقدية موحدة، بدلًا من التشتت الذي تغرقنا فيه كثرة العناوين التخصصية وانفصالها عن بعضها بحيث يتعذر

نقدها كلًا على حدة، فنحن نطرح منهجًا توحيديًا في النقد يواجه المنهج التجزيئي الذي توقعنا فيه كثرة النظريات والأفكار المادية، فنقارب جذور الإنحراف لا ظواهره المتكثرة. الفكر الإسلامي يملك مرجعية ثابتة وواحدة هي الكتاب الإلهي، فيستطيع من خلاله تقييم الناتج العلمي الصادر والوافد، وهمنا هو استخراج المعايير القرآنية التي يمكن لها أن تمارس سلطة مرجعية معيارية في حقل المعارف الإنسانية.

نرمي من وراء هذا التنظيم الثنائي المعياري، إلى توفير القدرة على تشخيص الجوانب العديدة جدًا من التطرف والانحياز التي تتضمنها النظريات والأفكار المادية في القضايا الإنسانية، الأمر الذي يتعذر عند الاعتماد على الذاكرة وعلى التحليل المباشر، نظرًا للتنوع الشديد لمداخل النقد، واتساع الموضوع، فيقع المتلقي أو الناقد في الخطأ والمحدودية في فهم مكامن التأثير السلبي الاختزالي، خصوصًا وأن مناهج النقد اعتمدت الأحادية، إما النقد القيمي، وإما النقد الكلامي، وإما النقد المنطقي، وكذلك هي أهملت جوانب كثيرة ولم يتم تناولها بالمطلق، فوقعنا تحت تأثير محدودية مناهج النقد الإسلامي للفكر المادي وتسربت مادة معرفية مشوهة إلى الثقافة والفكر.

عندما نأخذ موضوعًا محددًا في المنظومة الفكرية المادية ونبدأ بمعالجته من الناحية النقدية، فنكون قد حددنا نطاق النقاش والتفكير في هذا الإطار الضيق، الذي هو بالأصل إطار مادي، اختزالي، متطرف، يستبطن التخلي عن دور المنظومة الإسلامية والإلتزام بمنظومة أخرى من حيث الإطار، ومن جهة أخرى يستبطن هذا الإلتزام بنطاق نظرية مادية مشخصة الاعتراف بكون تلك النظرية تشكل طرحًا جديرًا ومؤثرًا ينبغي التعاطي معه كجزئية تستحق الإنفراد بها والتعاطي معها بما يليق بها من التعمق والتفصيل. أما عندما نضع رؤية معيارية شاملة فإننا نخرج من الإطار والمنظور والمفاهيم والمصطلحات التي تطرحها النظرية المقابلة، حينها يمكننا أن نخوض جدالًا نديًا نحافظ فيه على كل المكونات الفكرية والمعرفية لمنظومتنا الفكرية في مواجهة الطرح المقابل.

في مقاربتنا لا ننتقد نقاط الضعف المنطقية والعلمية للنظريات المادية، ولكن ننتقدها من الموقف الإسلامي التوحيدي، فلا ننظر إلى تلك النظريات على أنها تهديد على مستوى الإقناع وتغيير العقيدة، ولكنها تهديد على مستوى تشكيل العقل وطرق التفكير، فهي لا تستهدف بالضرورة الهدم المباشر للعقيدة ولكنها تغير نظرة الإنسان إلى الأبعاد الأربعة التي أشرنا إليها.

نلجأ إلى تحكيم مرجعية الثقلين في مقاربة العلوم الإنسانية المادية في مقابل تحكيم العقل والتحليل، فالشريعة هدفها الهداية وليس التحليل العلمي للنظريات، والدخول في المناظرات والمحاجّات لإقناع

الطرف الآخر. بذلك نقدم منظورًا نقديًا ثابتًا لا يتغير بتغير النظريات المطروحة، ويشكل إطارًا ومنهجًا للتفكير وحركة العقل في مقاربة النص المادي ويمنعه من التلقي السلبي. وفي هذا السياق نحدد المواضيع بناءً على النظرية الإسلامية القرآنية وليس بناءً على المنظومة والهيكلية المعرفية المادية، فقد تقع نظرية مادية موضع نظر عدة ثنائيات في نفس الوقت، لكننا لا نريد نقد النظريات بقدر ما نريد تحديد موقف شامل من المنظومة المادية. ولهذا نربط بين المنشأ الأصلي للانحراف والتجليات المباشرة له، بحيث يظهر تناقض المقاربة المادية للإنسان في القضايا الحياتية التفصيلية مع العقيدة التوحيدية، وليس مع الجزئيات الفقهية أو الأخلاقية.

مبدأ محوري في مقاربتنا النقدية المنهجية للفكر الاختزالي وهو الخلط بين الموضوعية والذاتية، القرآن لا يفصل الموضوع عن الذات، فنحن لا يمكن أن نقارب حل مشكلة معرفية دون تناول الروح الفردية والتأثر المتبادل بين الذات العارفة وموضوع المعرفة. فلا يمكن أن نقتصر على المضامين المنحرفة للعلوم الإنسانية المادية بل نتحدث عن تأثير أصل الإشتغال بها تعلمًا وتعليمًا وبحثًا بغض النظر عن وعي الإقرار أو الإيمان بها. فلا ينبغي، من وجهة نظر قرآنية، أن نحصر الإشكال في النطاق الفكري، بل نطل على التأثير الروحاني والمعرفي والقلبي للفكر المادي، فلا نهتم بالأصول المنطقية لهذا الفكر ولا نلجأ إلى تفكيكها، بقدر ما نبذل المستطاع في الإضاءة على مؤديات ونتائج هذا الفكر الإختزالي.

تتمحور عملية النقد لدينا على المنظور الفكري والنفسي للمنشغل بالفكر المادي، وكيف يتحكم هذا المنظور برؤيته ومدى بصيرته وبسنخية وشاكلة الإنسان، هذه الشاكلة التي يتولد سنخ السلوك الإنساني على أساسها [قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا] {الإسراء/84}. الشاكلة التي تتكون بالسلوك والانشغال الفكري، ولا ضرورة لأن تتراكم من خلال التوجه القصدي نحو الغفلة عن الحقيقة، فالنص المادي الغربي، أو الغربي المرتكز، يقدم إطارًا للفكر محصورًا في الجانب الدنيوي، وهو يؤطر حركة الذهن في هذه الدائرة الضيقة، وبذلك يضع البنية المؤاتية لصناعة الشاكلة المادية للإنسان، وتشير آية أخرى بشكل واضح إلى تأثير مضمون المعرفة على شاكلة الإنسان وحقيقته [قُل كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا {الإسراء/50} أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ .. {الإسراء/51}].

نقف، إذن، موقفًا نقديًا لا حواريًا مستندًا إلى الخطاب القرآني النقدي والإرشادي، فنموضع العلم داخل نطاق الدين، ونقارب حل مشكلة العلم / الدين، ونقارب المحاولة العلمانية بكليتها، نضع إطارًا شموليًا لعملية أسلمة العلوم الإنسانية، بغض النظر عن الكيفية والنتيجة التي قد تصل إليها هذه الفكرة على المستوى التفصيلي والإجرائي، سواءً استمرت مشروعيتها أم انهارت.

محاور النقد الأساسية :

يتمحور نقدنا حول معايير أربع : الفلسفة، المعرفة، التربية، الغاية. التي تشكل الأبعاد التي تستطيع تأطير حركة العقل والفكر والنفس بالشكل الذي يتناسب مع المشروع الإلهي للإنسانية. وهي، أي الأبعاد، مترابطة ومتداخلة ومتفاعلة بشكل عميق، في مقابل الرؤية المادية للإنسان التي تتناول هذه الجوانب الأربعة، وتقدم رأيها ومنهاجها الفكري المؤثر على تكون المعرفة بهذه الجوانب.

الإنسان قضية وليس موجودًا ثابتًا، فهو مخلوق هادف متحرك ومتطور متغير، فأول ما نحتاجه هو المعرفة بتكوين الإنسان، ثم تصحيح منهج المعرفة الخاص بالقضية الإنسانية، ثم معرفة المسار المتلائم مع التكوين الإنساني، وأخيرًا معرفة غاية وجود ونشاط الكائن الإنساني بما يتلاءم مع ما سلف. غير أننا هنا نتعرض لهذه العناوين الأربعة، أي : (ماهية الموجود الإنساني، سلامة المعرفة به، انسجام المسار التربوي مع الماهية، انسجام الغايات مع الماهية) من منظور معياري وذلك بهدف تصحيح الحركة العلمية التي تجعل القضية الإنسانية موضوعًا لها.

الفلسفة : ماهية الموجود الإنساني

وصف الوجود وظواهره الرئيسية وعلاقتها ببعضها البعض، ونقاربها تحت العناوين الثنائية التالية :
دنيا / آخرة، جسد / روح، الإنسان / الله، البقاء / الفناء، المادة / المجرد، الظواهر / التجليات، الكثرة / الوحدة، النفس/ الفطرة، البيئة / الإبتلاء، استقلال / ارتباط.

فكيف ينظر الفكر المادي إلى الظواهر الرئيسية في الوجود، وما هو النطاق الذي يعترف به والنطاق الذي ينكره أو يغفله أو يقاربه بشكل مبتسر، وكيف ينظر إلى علاقة هذه الظواهر ببعضها البعض، وما تأثير هذا الموقف الأيديولوجي الفلسفي على الفكر والروح الإنسانية بما هي جزء من المشروع الإلهي.

المعرفة : سلامة المعرفة به

طبيعة المعرفة، مستوياتها، غاياتها، أبعادها المختلفة، حركة الذات العارفة، مواضيعها، ونقاربها تحت العناوين الثنائية التالية :
الحصول / الحضور، الإستتار / الإنكشاف، ظاهر / باطن، الشهادة / الغيب، الوصف/ المعيار، استقراء / استدلال، الحس / العقل، الظن / اليقين، التشتت / الغائية، العلم / الدين، رأي / شريعة.

ما هي المشكلات المعرفية التي تطرحها النظرة المادية تجاه الإنسان والعلوم التي يشكل الإنسان لها موضوعًا، وما هو تأثير اقتصار النظرة إلى الإنسان في إطار البعد المادي على الفكر والروح الإنسانية بما هي جزء من المشروع الإلهي.

التربية : انسجام المسار التربوي مع الماهية

المسار الأخلاقي التكاملي للإنسان، وكيف يمكن تحديد نقاط الإعتلام وشواخص السير فيه :
الطغيان / العبودية، الفسق / التوازن، الأنانية / الربوبية، الأداة / القيمة، الإحتجاب / الاختمار، الواقع / الغاية.
ماهية التوجيه العام للإنسان في مراحل حياته المختلفة، وعلى أي أسس يقوم، وعلى أي نظرة تجاه الإنسان يرتكز، وكيف تؤدي النظرية المختصرة بالمادية إلى السير بالإنسان نحو مزيد من المحدودية والانعزال عن حقيقته المتصلة بالمطلق.

الغاية : انسجام الغايات مع الماهية

النشاط الحياتي الإنساني وما هي الطاقة المحركة له، وما هي الأهداف التي تحكم انطلاقه واستمراره :
نتيجة / تكليف، القوة / الفقر، الجمود / الحركة، التسافل / التكامل، التميز / العدالة، الاستعباد / الحرية، التأثير / الهداية، النمو / الصفاء.
أعطت النظرية المادية للإنسان الحق بتحديد غاية الحياة والوجود والحراك الإنساني، بناءً على معرفة مختصرة وناقصة ومحدودة البعد بالذات الإنسانية ومداها الوجودي والكوني وموقعها التكويني، فكيف أوصلت هذه الغائية المادية الإنسان إلى ضلال الطريق نحو التكامل الحقيقي.

المقاربة التحليلية

وفقًا للمنهج العام الذي قدمنا له، نحلل تأثير الإختزال المتطرف في كل ثنائية معيارية من ثلاث زوايا : معرفية : اختزال في تناول الموضوعات الإنسانية ، منهجية : التأثير في الذات العارفة وحركة العقل، تربوية : تأثير الإختزال المعرفي المتطرف على الإدراك والسير الروحي.

بعد تحليل كل ثنائية معيارية، نذهب لإخضاعها للتجربة، عبر تطبيقها على نظرية في العلوم الإنسانية المادية، والإحالة إلى نظريات أخرى ذات صلة يمكن تطبيق الثنائية المعيارية عليها، ونتناول صنفين أساسيين من العلوم الإنسانية، الأول القسم النظري، والثاني التطبيقي، فالعلوم الإنسانية تنقسم أربعة أنواع : فلسفية / أدبية / نظرية / تطبيقية

- الفلسفية : منطلق العلوم الأخرى، يتضح إلى حد ما موقعه من الفكر الإسلامي بشكل مباشر، كونها تحدد المعايير
- النظرية : وصفية أو تحليلية تنطلق من العلوم الفلسفية، ولا يتضح موقعها من الفكر الإسلامي بشكل مباشر
- التطبيقية : توجيهية أو علاجية، تنطلق من العلوم الفلسفية والنظرية، ولا يتضح موقعها من الفكر الإسلامي بشكل مباشر في الأعم الأغلب
- الأدبية : هي تعبير عن سائر الأشكال السابقة، وتتضمنها بشكل غير مباشر

كون العديد من النظريات الفلسفية قد خضعت للنقد الإسلامي نتيجة وضوح موقعها من الرؤية النقدية الإسلامية إلى حد بعيد، فقد تفادينا الدخول في نقد جديد لها، وكذلك فإن وقوع القسم الأدبي من القضايا الإنسانية موقع التعبير عن الأصناف الثلاثة الأخرى، أغنانا عن مقاربته بشكل منفصل.

عمليًا وعند مقاربتنا للنظريات والتطبيقات الإنسانية بشكل نقدي استنادًا إلى الثنائية المعيارية، لغاية تقديم مثال ودليل على انحراف النص الاختزالي من وجهة نظر قرآنية، فإننا نتناول بنية الإطار الاختزالي، أي بنية الفكرة المادية التي تشكل إطار التفكير لدى الإنسان المادي، هذه البنية التي تتشكل من : الاختصاصات والعلوم، هيكليات الموضوعات، مفاهيم ومصطلحات، مناهج بحث، منطق التفكير والتحليل، معادلات وقواعد، حقل لغوي ودلالي، نماذج ذهنية، البنى المتخيلة. ونحاول تحديد موقع ودور كل واحدة منها في صناعة الإطار الاختزالي وتكوين المنظور الذهني والموقف القرآني من كيفية تشكل الهوية الفكرية والروحية وتأثرها بالاحتكاك بالمجتمع المادي.

الحلول المقترحة

بعد تحليل الثنائية المعيارية، وعرض الأمثلة التطبيقية من النصوص المادية، نطرح اقتراحًا لحل المشكلة العلمية والمنهجية المتعلقة بهذه الثنائية، وذلك في أربعة أبعاد :

- منهجية : تنظيم المنهج وفق الرؤية الكونية وغايات العلم في النظرة الإسلامية

لا يمكن لنا كسر الإطار الاختزالي المتطرف من دون توسيع مرجعية مناهج البحث التي تشكل قوالب التفكير.

- تربوية روحية : وقاية المتعلم والعالم من الإنحراف الروحي

للعلم الديني تأثير جانبي فكيف بالعلوم الدنيوية وحجم التأثير المادي للفكر الاختزالي المتطرف، فنحن بحاجة إلى وقاية للقلب والروح لمنع انحراف المعرفة نحو المادية.

- ثقافية : سد ثغرة المعرفة الدينية في القضايا الإنسانية

الثقافة الاختزالية المتطرفة تكرست كمرجعية في التصور والتفكير والتحليل وغابت الثقافة الواقعية كبنية أصلية للتفكير والنقد ولذلك لا بد من إعادة النظرة العقلانية لتكون هي الثقافة المركزية.

- نظرية : التوازن في الدراسات الإسلامية

إغفال المفكر الإسلامي للجوانب التطبيقية في القضايا الإنسانية أوجد الثغرة التي تسربت منها الأفكار الاختزالية ولا يمكن لنا وقف هذا التسرب إلا بسد الحاجة الواقعية للرؤى التطبيقية الإسلامية.

وعند تكامل المشروع، الذي نقترح خطوطه الأولى هنا، تستند الحلول المقترحة إلى النص القرآني، مستفيدة من المدخل القرآني الذي أدرج في كل معيار، وتجدر الإشارة إلى أنه في البعدين الفلسفي والمعرفي تجنح الحلول المقترحة نحو النظرة المتوازنة بين شقي الثنائية، أما في البعدين التربوي والغائي فتميل إلى تقديم وجهة النظر الإسلامية بشكل حاسم ونهائي.

مصفوفة الثنائيات المعيارية

معايير فلسفية وجودية		
1	دنيا / آخرة	تنكر وجود الآخرة ولذلك تلغي الغاية من حياة الإنسان
		تبعد الإنسان عن الآخرة بصرف فكره وعزيمته واهتمامه نحو الأمور الدنيوية
2	جسد / روح	باهتمامها بالقضايا المختلفة والمتغيرة تغيب الإنسان عن وجود روحه الثابتة
		باهتمامها بقضايا الدنيا تغفل الإنسان عن وجوده الشفاف الذي يدرك نفسه بنفسه حضوريًا
3	الإنسان / الله	تنظر إلى الإنسان على أنه محور الوجود وبالتالي تنكر فطرة التوجه إلى الله
		تسعى لتحويل الإنسان إلى إله من خلال المعرفة بكل تفاصيل الوجود
4	البقاء / الفناء	تنظر إلى الإنسان بشكل لا مباشر على أنه باقٍ
		تنظر إلى فناء الإنسان بشكل لا مباشر على أنه نهايته
		تسعى إلى بقاء الإنسان في حين أن غايته الفناء في الله
5	المادة / المجرد	تصرف الإهتمام عن القضايا المجردة العقلية والروحية وبالتالي تضعف قدرة الإنسان على إدراكها والإيمان بها
6	الظواهر / التجليات	تفصل الظواهر الإنسانية عن الرؤية التوحيدية للكون وحقائق الوجود
		لا تعتبر أن الظواهر الإنسانية تتأثر بالإذن الإلهي والإرادة والتأثير الإلهيين
7	الكثرة / الوحدة	تغرق الإنسان في عالم الكثرة والتغير وتضعف إمكانيات العقل والتصور على رؤية الوحدة
8	الإستتار / الإنكشاف	تعتبر الإنسان مستقلًا في تحصيل المعرفة وتطويرها وبالتالي تعطيه استقلالًا وسلطانًا غير واقعيًا
		تعتبر إن اكتشافات الإنسان غير موجودة في العلم الإلهي مسبقًا، ولذلك هو يستطيع خلق المعرفة
9	النفس/ الفطرة	تجهل وجود الفطرة وبالتالي تفتقد لوجود أي شيء ثابت في النفس البشرية
		تنكر وجود الفطرة وبالتالي تجهل طبيعة الإنسان (غايته، صفات الكمال الحقيقي،..)
10	البيئة / الإبتلاء	تصف البيئة على أنها فوضى وحالة عدائية تجاه الإنسان، لا أنها ساحة بلاء واختبار
		تصف البيئة الإجتماعية على أنها غابة، يعيش الإنسان فيها حالة عدم انسجام مع الذات
11	استقلال / ارتباط	تنكر ارتباط الإنسان بالله، من خلال النظر إلى الظاهرة الإنسانية بشكل مستقل
		تنفي آثار التوكل في الحياة الفردية والاجتماعية

معايير معرفية		
1	الحصول / الحضور	تضعف المعرفة الحضورية بسبب تركيزها على المعرفة الحصولية والإنشداد إلى الدنيا
		تمنع الإنسان من إدراك الإختلالات المعرفية في الوصف والتوجيه بسبب ضعف حضور الله في قلبه
2	ظاهر / باطن	تهتم بظاهر الإنسان وانعكاسات الظاهر السلوكي لديه وتهمل باطنه
		تستدل على باطن الإنسان من خلال سلوكه الظاهري من دون وجود تعريف ثابت وحقيقي لباطنه
3	الشهادة / الغيب	تلغي وجود الغيب في الحياة الإنسانية وتضع الإنسان في حالة انفصال عن الواقع
		تفشل في رسم الصورة الواقعية للمؤثرات الفاعلة في الحياة الإنسانية وأهمها الغيب
4	الوصف / المعيار	تعتمد على وصف الظاهرة وتحليلها لاستخراج المعايير والنظم وقوانين الحياة، من نظر إليها أعمته
		تحدد منظار المعايير ومساحتها الفكرية والوجودية بعيدًا عن الغايات الشاملة للكون
		تلغي المعايير القبلية المودعة في الرسالة السماوية الخارجة عن ذات الإنسان المختار
		تفتقد للظاهرة الإنسانية الكاملة (المعصوم)
5	استقراء / استدلال	تعتمد على الإستقراء مصدرًا أساسيًا للمعرفة فتقع في مشكلة الإختلاف والكثرة والتغير
		تضعف نشاط الإستدلال العقلي، فتجعل العقل قاصرًا عن الوصول إلى القضايا المجردة بالدليل المجرد
6	الحس / العقل	ترتكز إلى الحس وتنقل المعلومات الحسية بحيث تضعف نشاط العقل
		لا تعطي للعقل أولوية في المعرفة بشكل مستقل، بل ترتكز إلى المعلومات التي يتلقاها
7	الظن / اليقين	تنكر وجود المعرفة الحضورية وبالتالي تلغي إمكانية الوصول إلى اليقين الحقيقي
		تعتمد المنهج المعرفي التجريبي الدائر مدار الظن في محاولات إدراك الماورائيات
8	التشتت / الغائية	تشتت المجهود الفكري الإنساني بسبب الإختلاف الهائل لزوايا النظر الوجودية والكونية
		يؤدي غياب التوحد في الغاية الحاكمة على كل شيء إلى تشتت الفكر والنظر
9	العلم / الدين	تفصل العلم عن الدين فيفقد العلم الضوابط الأخلاقية والفلسفية المتعلقة بحياة الإنسان
		تبعد الإنسان عن الإلتزام بالرسالة الدينية بإدخاله في منظومة فكرية أخرى منعزلة
		تعتمد منهج بحث وتحدد مسائل بحثية تتخطى الحدود الفقهية بما يحدث اختلالًا في المعرفة
		تحلل الوجود الإنساني من خلال منهاج العلوم الطبيعية
10	رأي / شريعة	ادعاء قدرة النفس على إبداع معرفة صحيحة ومناسبة للواقع ومؤثرة فيه من دون الاستعانة والاستناد والإنطلاق من الوحي والمعرفة الفلسفية الصحيحة

معايير تربوية		
1	الطغيان / العبودية	تعمل على إطلاق طاقات الإنسان بما يؤدي إلى طغيانه وغفلته عن غايته الخاصة
		تمنع الإنسان من الانشغال بتحقيق عبوديته كونها خارج اهتمامه الذهني والفكري
2	الفسق / التوازن	تهتم بجزء من حاجات الإنسان وأبعاده ما يؤدي إلى انحرافه وانكسار توازنه الوحدوي
3	الأنانية / الربوبية	تنطلق من خلفية أنانية لتحقيق الذات، ولا تعترف بالحاجة لربوبية الله في التكامل الإنساني
4	الأداة / القيمة	تنظر إلى القيمة نظرة مرتبطة بالنتيجة
		تعطي للقيمة مقام الثبات ولكن باعتبارها أداة توصل إلى النتيجة وليست جوهرًا بحد ذاته فتلغي الحسن والقبح العقليين
5	الإحتجاب / الاختمار	بانشدادها إلى المادة والدنيا تؤدي إلى احتجاب الفطرة الإلهية عن حقائقها الكامنة
		بتقديمها للأداة على القيمة وإلغائها الحسن والقبح العقليين تلغي معرفة الفطرة بصفات الجمال الحقيقي
6	الواقع / الغاية	تهتم بوصف الواقع وكيفية التعاطي مع مشكلاته
		تهمل الغاية الحقيقية لوجود الإنسان

معايير غائية		
1	نتيجة / تكليف	تركز على النتائج الدنيوية وتعتبرها معيار نجاح الإنسان
		تحجب الإنسان عن النتائج الحقيقية الروحية والأخروية لأعماله، وتمنعه من تحصيل النية المخلصة بتركيزه على النتيجة
		تقدم الإنسان مخلوقًا قادرًا على تحقيق النتائج رغم عدم ثبات ذلك في التجربة الإنسانية
2	القوة / الفقر	تسعى لتحقيق القدرة والقوة بغض النظر عن المعرفة الواقعية بالوجود الإنساني
		تحجب الإنسان من إدراك افتقاره إلى الله
3	الجمود / الحركة	توقف الحركة التكاملية للإنسان و تجعله في حالة جمود روحي
		توقف الحركة التفاعلية بين روح الإنسان وخالقها فتميت الأحاسيس الروحية
4	التسافل / التكامل	لا تمتلك رؤية لتكامل الإنسان فتخلط في دعوتها بين توجيهات التسافل والتكامل
5	التميز / العدالة	تركز على التمايز والاختلاف بين البشر بما يغيب أهمية قضية العدالة
		تدعو الإنسان إلى تحقيق وجوده من خلال الإختلاف والتمايز والتفوق
6	الاستعباد / الحرية	تستعبد الإنسان للمادة فتمنعه من التحرر منها
7	التأثير / الهداية	تسعى لجعل الإنسان مؤثرًا في البيئة الإجتماعية بغض النظر عن الغاية من ذلك
		تلغي مفهوم الهداية فتكسر دوافع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
8	النمو / الصفاء	تركز على التنمية والتطور والتقدم دون اتجاه محدد فتلوث صفاء الإنسان الذي يعتبر غاية سعيه
		تهمل صفاء الإنسان وشفافيته الأخلاقية والروحية والوجودية، وتراكم عليه أعباءً معرفية